تطبيق 08/ شعر ابن الأبّار

نبذة عن الشّاعر ابن الأبّار:

هو محمد بن عبد الله بن أبي بكر القُضاعي، وُلدَ عام 1199م (595هـ) في مدينة بلنسية (فالنسيا المعاصرة)، حاضرة الشرق الأندلسي، والتي ارتبطت به ارتباطًا وثيقًا، وحمل نسبها في اسمه، فعُرف دائمًا بـ"ابن الأبَّار البلنسي"، وكان مولدُه بعد أربعة أعوامٍ من آخر انتصارٍ كبير للمسلمين في الأندلس على خصومهم القشتاليين الإسبان في موقعة الأرك عام 1195م (591هـ)، في عهد خليفة دولة الموحدين المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن، والذي توفي للمفارقة في عام مولد ابن الأبار نفسه، ولم يحكم الأندلس والمغرب بعده أحد بقوتِه نفسها وتمدُّد دولته. كانت أسرة ابن الأبَّار معروفة بالعلم والمكانة الاجتماعية، وكان أبوه عبد الله من العلماء المعروفين، ودرس على يديْه فترةً من الزمن، ثمَّ سافر في كافة أنحاء الأندلس طلبًا للعلم والمعرفة، وتتلمذ على يد كبار فقهاء وأدباء عصره من القضاة وعلماء الأحاديث، ومنهم الحافظ أبو الربيع بن سالم، كبير علماء الحديث في الأندلس، والذي لازمه ابن الأبار لأكثر من 20 عامًا.

نماذج من شعر ابن الأبار:

كان ابن الآبار يغتنم كل فرصة للإشادة بارتباط الأندلس بالدولة الحفصية ارتباط ولاء وتبعية، من ذلك قصيدته رقم «25- ص:80» الذي يسجل فيها بيعة بعض المدن الأندلسية لأبي زكريا، وذلك حوالي 641هـ يقول:

إلى مذهب سنته سبتة قاصد ... به عدلوا عن زائغات المذاهب
إلا هذه «حمص» تناسب طاعة ... سجلماسة في رفضها للمناصب
وما خالفت غرناطة رأي ربة ... لتشمل أنوار الهدى كل جانب
وجبان لم تبرح كشلب وطنجة ... مبارية هوج الصبا والجنائب

وعندما سقطت اشبيلية في أيدي القشتاليين في شعبان 646هـ كان ابن الآبار في بجاية، وبعد ذلك بثلاثة أشهر أنشأ قصيدة موجهة إلى أبي زكريا، وكان ذلك بعد العفو عنه، وهي كلها تحريض وإثارة للحفصيين ليسارعوا لإنقاذ الأندلس بأسلوب يدل أن الأمر هين، وأن ليس بين الحفصيين وبين القضاء على محتلي بلنسية وغيرها سوى أيام قليلة، فأرض الأعداء قد استوجبت وأذنت بافتتاحها، إذ ليس وراء الليل إلا الصباح، إنهم ذئاب هيجوا ليث الحرب والمعامع، وقد صور الأعداء بأنهم ضعفاء ومنهزمون، في حين صور الحفصيين في قوة واكتساح

ولم يتحدث عن نفسه إلا في آخر القصيدة حيث أبرز فرحة عارمة بالعفو عنه إذ يقول:

يدك العليا حيث كل حذيا ... ما لأرباحي بها من براح
بوركت من راحة سوغتني ... في بكوري لثمها أو رواحي

ومن القصائد التي مدح بها أبا زكرياء، واصفا أحواله الجديدة، وحياته بتونس في ظل الحفصيين تلك التي مهد لها بمقدمة غزلية طويلة، مادحا الأمير بأوصاف مستفيضة من العلم والشجاعة والكرم، وربط ذاك بجهاده الكفار بالأندلس.

يقول في آخر القصيدة الطويلة:

وهذه ملوك الروم تشخص رسلها بسلمك تبغي للسلام سلما
ويغزى جناب طال بالغزو عهده ويفتح باب كان الكفر مبهما

وهنا حقيقة هامة لم تسجل في التاريخ أو على الأقل في تاريخنا، وهي السفارات الإغونية أو غيرها إلى تونس في شأن تنظيم العلاقات الحزبية والسليمة بين الجانبين.

كان ابن الآبار شخصية قوية، مفرطة في الإعجاب بنفسه، وزادته الغربة حدة في طبعه مما جعله يجار بالشكوى. وكان يبث هذه الشكوى خلال قصائده الاعتذارية وخلال نفثاته الحزينة، التي كانت أشواقا لوطنه، ووصفا لجماله، وترددا لذكريات جميلة في رياضه وحلقاته العلمية ومجالس أصحابه، ومدارج ألعابه.يقول شاكيا ضياعه

لام المحبوب الفراق ولمنه لكنهم سئموا ولما أسأم
ظعنوا وهم قد ودعوا أو سلموا وظعنت غير مودع ومسلم
فعني فلتبك البواكي إنني أخرجت من وطني ولست بمجرم
وأضعت يوم وضعت في أرض بها يغدو الفصيح معصما للأعجم
لا أستريح بغير ليل أليل أشكو تطاوله ويوم أيوم

وقد مرت على الشاعر الوزير حقب كان الحديث فيها عن نفسه ممزوجا بوطنه وقضيته، فالجراح ملكت عليه جوارحه واستبدت بها. لا تخلو جارحة من جرح ينزف دما، فلا أمل في شفائه، ذلك لأنه كوطنه عار أعزل أمام هجمات الخطوب والكوارث المتجددة، وهو في صحراء قاحلة لا ماء ولا شجر، بل إنه يسير في متاهاتها ليس له فيها من سبيل ولا قدرة على التخلص من الهلاك الذي يتربصه في كل ناحية، كطائر مهيض الجناح، وحديثه عن وطنه مفعم أبدا بالأسى والكمد، إذ أسلم إلى العدو الذي هوى عليه بسيفه كالسفاح في حين غاب عنه منصوره الذي كان يحمي حماه، ويحوطه بالأمن والأمان.

يقول في نادب بلنسية:

ملكت جوارحه عليه جراحه فشقاؤه لا يرتجى وسراحه
عار لإبكار الخطوب وعونها غيضت موارده وهبض جناحه
لم يعترضه مساؤه بمساءة إلا وضاعفها عليه صباحه.....

المرجع: عبد السلام الهراس، ابن الأبار الأندلسي البلنسي: شاعر وفي لوطنه.